

القسم الثاني من الميلاد إلى البعثة / نسبه صلى الله عليه وسلم وولادته ورضاعته

أما نسبه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ويدعى شيبه الحمد، ابن هاشم بن عبد مناف واسمه المغيرة، ابن قصي ويسمى زيدا، ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

فهذا القدر المتفق عليه من نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم، أما ما فوق ذلك فمختلف فيه، لا يعتمد عليه في شيء. غير أن مما لا خلاف فيه أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله ابن إبراهيم خليل الله عليهما الصلاة والسلام، وأن الله عز وجل قد اختاره من أزكى القبائل وأفضل البطون وأظهر الأصلاب.

روى مسلم بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى هاشما من قريش واصطفاني من بني هاشم» .

وأما ولادته صلى الله عليه وسلم فقد كانت في عام الفيل، أي العام الذي حاول فيه أبرهة الحبشي غزو مكة وهدم الكعبة فرده الله عن ذلك، وكانت على الأرجح يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول.

وقد ولد يتيما، فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين فحسب فعني به جده عبد المطلب واسترضع له على عادة العرب إذ ذاك امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب.

وقد أجمع رواة السيرة أن بادية بني سعد كانت تعاني إذ ذاك سنة مجدبة قد جفّ فيها الضرع ويبس الزرع، فما هو إلا أن صار محمد صلى الله عليه وسلم في منزل حليمة واستكان إلى حجرها حتى عادت منازل حليمة من حول خبائها مخضرة فكانت أغنامها تروح منها عائدة إلى الدار شباعا ممتلئة الضرع.

وقد حصلت أثناء وجوده صلى الله عليه وسلم في بادية بني سعد (حادثة شق الصدر) التي رواها مسلم، ثم أعيد بعدها إلى أمه وقد تمّ له من العمر خمس سنوات.

ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمّه آمنة، وما أن تحول الرسول إلى كفالة جده عبد المطلب حتى وافته هو الآخر منيته فمات وقد تمّ للنبي صلى الله عليه وسلم ثماني سنوات، فكفله عمه أبو طالب.

العبر والعظات:

يؤخذ من هذا المقطع من سيرته صلى الله عليه وسلم مبادئ وعظات هامة نجملها فيما يلي:

١- فيما أوضحناه من نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم، دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب على سائر الناس، وفضل قريشا على سائر القبائل الأخرى.

٢- ليس من قبيل المصادفة أن يولد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتيما، ثم لا يلبث أن يفقد جده أيضا، فبنشأ النشأة الأولى من حياته بعيدا عن تربية الأب ورعايته محروما من عاطفة الأم وحنوها. لقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة، لعلّ من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب أو إيهام الناس بأن محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما رضع لبان دعوته ورسالته التي نادى بها منذ صباه، بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده.

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن لا يكون للمبطلين من سبيل إلى مثل هذه الريبة، فنشأ رسوله بعيدا عن تربية أبيه وأمه وجدّه، وحتى فترة طفولته الأولى، فقد شاء الله عز وجل أن يقضيها في بادية بني سعد بعيدا عن أسرته كلها، ولما توفي جدّه وانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب الذي امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات، كان من تنمة هذه الدلالة أن لا يسلم عمه، حتى لا يتوهم أن لعمه مدخلا في دعوته، وأن المسألة مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب.

٣- يدل ما اتفق عليه رواية السيرة النبوية من أن منازل حليلة السعدية عادت مخضرة بعد أن كانت مجدبة قاحلة، وعاد الدرّ حافلا في ضرع ناقتها الكبيرة المسنة بعد أن كان يابسا لا يتتدى بقطرة لبن، يدل ذلك على علو شأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورفعة مرتبته عند ربّه حتى عندما كان طفلا صغيرا كغيره من الأطفال.

٤- تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل، وقد رويت هذه الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة منهم أنس بن مالك فيما يرويه مسلم في صحيحه: «أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه" مرضعته" ينادون: إن محمدا قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون»

وليست الحكمة من هذه الحادثة- والله أعلم- استئصال غدة الشر في جسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم أو علة في بعض أنحاءه، لأمكن أن يصبح الشرير خيرا بعملية جراحية. ولكن يبدو أنّ الحكمة هي إعلان أمر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتهيؤه للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته. إنها إذن عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم.

رحلته الأولى إلى الشام ثم كدحه في سبيل الرزق

ولما تمّ له صلّى الله عليه وسلم من العمر اثنتا عشرة سنة، سافر عمه أبو طالب إلى الشام في ركب للتجارة، فأخذه معه. ولما نزل الركب (بصرى) مروا على راهب هناك يقال له (بحيرا) وكان عليما بالإنجيل خبيرا بشؤون النصرانية وهناك أبصر بحيرا النبيّ صلّى الله عليه وسلم، فجعل يتأمله ويكلمه، ثم التقت إلى أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ فقال: ابني (وكان أبو طالب يدعو بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه) فقال له بحيرا: ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حيا. فقال: هو ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به. قال بحيرا: صدقت. فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فو الله لئن رأوه هنا ليلبغته شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به أبو طالب عائدا إلى مكة، ثم أخذ رسول الله يستقبل فترة الشباب من عمره فبدأ بالسعي للرزق وراح يشتغل برعي الغنم، ولقد قال عليه الصلاة والسلام عن نفسه فيما بعد: «كنت أرى الغنم على قراريط لأهل مكة». وحفظه الله من كل ما قد ينحرف إليه الشبان من مظاهر اللهو والعبث. قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويّه عن نفسه:

«ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة. قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني، فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي، فسألني فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بعده بسوء» .

العبر والعظات:

يدل حديث بحيرا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وهو حديث رواه عامة علماء السيرة ورواتها وأخرجه الترمذي مطوّلا من حديث أبي موسى الأشعري على أن أهل الكتاب من يهود ونصارى، كان عندهم علم ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفة بعلاماته، وذلك بواسطة ما جاء في التوراة والإنجيل من خبر بعثته وبيان دلائله وأوصافه. والدلائل على ذلك كثيرة مستفيضة.

فمنها ما رواه علماء السيرة من أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلّى الله عليه وسلم قبل مبعثه ويقولون: إن نبيا سيبعث قريبا سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، ولما نكثوا عهدهم أنزل الله في ذلك قوله: **لَوْلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** {

وروى القرطبي وغيره أنه لما نزل قول الله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام وقد كان كتابيا فأسلم: أتعرف محمدا صَلَّى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، أما ابني فلا أدري ما الذي قد كان من أمه. ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي تتبع خبر النبي صَلَّى الله عليه وسلم وصفاته من الإنجيل والرهبان وعلماء الكتاب.

أما إقباله على رعي الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ففيه ثلاث دلالات هامة:

الأولى: الذوق الرفيع والإحساس الدقيق للذات جمل الله تعالى بهما نبيه محمدا صَلَّى الله عليه وسلم. لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة، وكان له في الحنو والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه صَلَّى الله عليه وسلم ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الإنفاق عن عمه.

الثانية: وتتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا.

لقد كان سهلا على القدرة الإلهية أن تهيب للنبي صَلَّى الله عليه وسلم، وهو في صدر حياته، من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام، ولكن الحكمة الإلهية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدّ يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه.

الثالثة: إن صاحب أي دعوة، لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم. ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشتة على جهده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل في دنياه فيعوقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبال بالموقع الذي قد تقع من نفسه.

وفيما قصه النبي صَلَّى الله عليه وسلم عن نفسه من خبر حفظ الله إياه من كل سوء منذ صغره وصدر شبابه، ما يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

الأولى: أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم كان متمتعا بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها. فكان يحس بمعنى السمر واللهو ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحديثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

الثانية: أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها، فهو حتى عندما لا يجد لديه الوحي أو الشريعة التي تعصمه من الاستجابة لكثير من رغائب

النفس، يجد عاصما آخر خفيا يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه نفسه مما لا يليق بمن هيأته الأقدار لتتميم مكارم الأخلاق وإرساء شريعة الإسلام.

لا جرم إذن أن هذه العناية الإلهية الخاصة التي جعلت لشباب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقا دقيقا من النور يمخر عباب ظلام الجاهلية، من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التي خلقه الله لها وهياً لحمل أعبائها، وعلى أن معنى النبوة هو الأساس في تكوين شخصيته واتجاهاته النفسية والفكرية والسلوكية في الحياة.

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، ومعه غلامها ميسرة. وقد قبل محمد عليه الصلاة والسلام هذا العرض فرحل إلى الشام عاملا في مالها ومعه ميسرة. فحالفه التوفيق في هذه الرحلة أكثر من غيرها، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة، فأدى لها ما عليه في أمانة تامة ونبل عظيم. ووجد ميسرة من خصائص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعظيم أخلاقه ما ملأ قلبه، دهشة له، وإعجابا به فروى ذلك لخديجة.

فأعجبت خديجة بعظيم أمانته، ولعلها دهشت لما نالها من البركة بسببه، فعرضت نفسها عليه زوجة بواسطة صديقتها نفيسة، فوافق النبي عليه الصلاة والسلام، وكلم في ذلك أعمامه فخطبوا له من عمها عمرو بن أسد. وتزوجها عليه الصلاة والسلام وقد تم له من العمر خمسة وعشرون عاما ولها من العمر أربعون.

العبر والعظات:

أما عمله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مال خديجة، فهو استمرار لحياة الكدح التي بدأها برعي الأغنام، وأما فضلها ومنزلتها في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلقد ظلت لخديجة مكانة سامية عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طوال حياته، وقد ثبت في الصحيحين أنها خير نساء زمانها على الإطلاق.

روى البخاري ومسلم أن عليا رضي الله عنه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «خير نساءها مريم بنت عمران وخير نساءها خديجة بنت خويلد»

وروى أحمد والطبراني من طريق مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوما من الأيام، فأخذتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزا قد أبدلك الله خيرا منها؟ فغضب ثم قال: «لا والله ما أبدلني الله خيرا منها: آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء» .

وأما قصة زواجه صَلَّى اللهُ عليه وسلم منها، فإن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول صَلَّى اللهُ عليه وسلم بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هي أقل منه سناً أو بمن ليست أكبر منه على أقل تقدير. ويتجلى لنا أنه صَلَّى اللهُ عليه وسلم إنما رغب فيها لشرفها ونبلاها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة.

ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر، دون أن يفكر خلالها بالزواج بأي امرأة أو فتاة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

وفي هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه، من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسرون من ورائهم، ينعمون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء.

فقد ظنوا أنهم واجدون في موضوع زواج النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن يشوّه من سمعة محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلم، وتخلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهوان الغارق في لذة الجسد العازف في معيشته المنزلية ورسالاته العامة عن عفاف القلب والروح.

ومعلوم أن المبشرين ومعظم المستشرقين، هم الخصوم المحترفون للإسلام، يتخذون القدر في هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم.

وإلا، فموضوع زواج النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر، العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه، على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماماً.

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ثم من غيرها، فإن لكل منهن قصة، ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلم ورفعة شأنه وكمال أخلاقه. وأياً كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد استجابة للرغبة الجنسية، إذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب للرغبة النفسية في الوقت الطبيعي لهذه الرغبة وندائها.. خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالي الفكر ليس له من هموم الدعوة ومشاغلا ما يصرفه عن حاجاته الفطرية والطبيعية.